

## الأكاديمية الأوروبية للتراث القبطي

The European Academy for Coptic Heritage

(TEACH)

### أساليب التناول عبر العصور

**سؤال:** ما هي أساليب التناول عبر العصور في الكنائس المختلفة عموماً وفي الكنيسة القبطية خصوصاً؟

**الإجابة:** سأجيب عن هذا السؤال في بندين، ما يختص بالكنائس المختلفة، ثم ما يختص بكنيسة الإسكندرية.

#### أولاً: أساليب التناول عبر العصور في الكنائس المختلفة

في القرون الثلاثة الأولى للميلاد، كان المؤمنون يحملون معهم إلى بيوتهم أجزاء من الجسد المقدس بعد قداس يوم الأحد، ليتناولوها بأنفسهم طوال بقية أيام الأسبوع. ولهذا السبب صنعت صناديق صغيرة من الخشب أو العاج أو أحد المعادن، مزودة بسلسلة يمكن بواسطتها حمل هذه الصناديق حول العنق. وعُرفت باسم Arcæ أو Arculae كما يفعل الكهنة الأنجليكان حالياً. ووجدت أمثلة لذلك على صدور الموتى المنتقلين والمدفونين في سراديب الفاتيكان في القرنين الثاني والثالث للميلاد.

ولكننا نعرف أنه منذ أواخر القرن الخامس الميلادي منعت الكنيسة القبطية الاحتفاظ بالأسرار المقدسة للتناول منها في غير أوقات إقامة القداسات، وذلك طبقاً للقانون (رقم ٧٨) من قوانين البابا أثناسيوس الثاني (٤٨٩-٤٩٦م) بطريرك الإسكندرية. وبرغم ذلك لم تتوقف هذه الممارسة نهائياً إلا في زمن البابا خريستوذولوس (١٠٤٦-١٠٧٧م) الـ ٦٦ في القرن الحادي عشر الميلادي. أما الكنيسة اليونانية فاحتفظت حالياً بالأسرار المقدسة في الكنيسة نفسها وليس في البيوت بدءاً من القرن الرابع الميلادي<sup>(١)</sup>.

وكانت العادة القديمة في التناول، أن يأخذ المتناول الجسد المقدس على راحة يده اليمينية، ثم يتناوله. وفي ذلك يقول القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م):

[عندما تذهب لتناول القربان، لا تمد ذراعك من بعيد ولا تجعل أصابعك متباعدة، بل اجعل يدك اليسرى عرشاً ليمنك التي ستقبل الملك العظيم، وتناول في راحة الكف، جسد المسيح، قائلاً: "أمين"<sup>(٢)</sup>.

وفي كنيسة أنطاكية، نعرف أيضاً من القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) هذه الممارسة فيقول:

[انظروا أنكم ليس فقط قد نلتم هذه العطية في يدكم، بل إنكم قد رفعتموها لقمكم ...]<sup>(٣)</sup>.

ففي الكنيسة السريانية يضع الأسقف جزءاً من الخبز الذي تقدس على راحة يد المتناول اليمينية، تسندها اليد اليسرى. والشماس يمسك الكأس ويشربون منه مباشرة. ولكل متناول يقول الأسقف: "جسد المسيح". والشماس يقول: "دم المسيح كأس الحياة". والجواب في كلا الحالتين: "أمين" ...

وأثناء التناول، يرثل المرتمون مزموماً (٣٣) «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب». وعندما تتم المناولة، يعطي الشماس الإشارة لأجل الصلاة، فيقدمها الأسقف نيابة عن الكل، ثم يجني الجميع رؤوسهم، ويتلقون البركة، ثم يصرف الشماس الشعب قائلاً:

1- J.G. Davies, *A Dictionary of Liturgy and Worship*, London, 1984, p. 327 ; Aziz S. Atia, *The Coptic Encyclopedia*, 1991, vol. IV, p. 1064-1065.

’اذهبوا بسلام‘<sup>(٤)</sup>. وهو الطَّقس الذي عرفته كلُّ الكنائس شرقاً وغرباً.

وفي أواخر القرن الرَّابِع الميلادي طرأ تطوُّرٌ على طريقة التَّنَاول من الأسرار المقدَّسة، فيقول الكاتب الرُّوسي نيقولاوي جوجول (١٨٠٩-١٨٥٢م): ”في زمن الكنيسة الأولى، كان الشَّعب يتناول العنصرين منعزلين مثلما يفعل الكهنة الآن. وكان كلُّ شخص يتناول بيده جسد ربِّنا الطَّاهر، ويشرب بنفسه من دمه الطَّاهر. ولكن لما بدأ بعض المسيحيين ... يتصرَّفون في الكنيسة بغير لياقة ... لهذا أمر القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) ألاَّ يتناول الشَّعب العنصرين منفصلين، بل يُخلطاً معاً ولا يُعطى للشَّعب في أياديهم بل بالملعقة المقدَّسة (المستير) التي تقوم مقام الملقط الذي لمس به السِّيراف النَّاري فم إشعياء النَّبي، لتذكير الجميع بطبيعة هذا الذي تلمسه شفاههم“<sup>(٥)</sup>.

ولكن يبدو أن ما أمر به القديس يوحنا ذهبي الفم بتناول العنصرين معاً بواسطة المستير، لم ينتشر في كلِّ الكنائس، لأنه مع مرور الزَّمن، رأى البعض أن يصنعوا آنية من الذهب أو غيره من المعادن للاستعاضة بها عن أيديهم في تناول القربان الطَّاهر. فأبطل مجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م في قانونه رقم (١٠١) هذا العادة قائلاً: ”إذا شاء أحد أن يتناول الجسد الطَّاهر في وقت القدَّاس الإلهي، متقدِّماً للشُّركة، فليجعل يده على شكل صليب وهو يتناول شركة النِّعمة“. ويتَّضح من ذلك، أنه حتى نهاية القرن السَّابع الميلادي على الأقل، كان التَّنَاول لازال بوضع الجواهر في اليد، ثمَّ يتناولها الإنسان لفمه بنفسه.

وهكذا استقر في الطَّقسين البيزنطي والسِّرِّياني، أن يُعطى الجسد المقدَّس مغموساً في الدَّم الكريم للمتناولين. وهو ما صار معروفاً أيضاً في كنيسة قرطاجنة في شمال إفريقيا في القرن الخامس الميلادي.

وفي الغرب المسيحي أيضاً، كان المتناولون يتناولون الحُبز مغموساً في الدَّم، حتى إلى القرن الثَّاني عشر الميلادي، حين شاعت مناولة المؤمنين تحت شكل الحُبز وحده، حيث مُنِع الكأس بتاتاً عن المؤمنين، والذي يتناوله الكهنة وحدهم<sup>(٦)</sup>.

وفي حالات تناول المرضى، فإنهم يتناولون الجسد المقدَّس ممزوجاً بالدَّم الكريم وذلك في وعاء صغير من الفضة غالباً، ذو غطاء مُحكم . وأوَّل من ذكر هذه العادة هو القديس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠-١٦٥م) في القرن الثَّاني الميلادي<sup>(٧)</sup>.

والشُّرفيُّون يقبلون المناولة واقفين، باستثناء الأرمن والموارنة الذين يركعون أثناء التَّنَاول<sup>(٨)</sup>. والحقيقة أن عادة الرُّكوع أثناء التَّنَاول، ترجع إلى اللاتين الغربيين في العصور الوُسْطى.

ولا يُستخدم المستير (الملعقة) حالياً في التَّنَاول عند الأرمن والسِّرِّيانيين والنَّساطرة والموارنة والكنيسة الغربيَّة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن كنيسة روما قد استخدمت المستير بدءاً من سنة ١٩٦٥م، لمعايرة كمِّيَّة الماء التي تُضاف على الخمر، لمزجها معاً في الكأس.

## ثانياً: أساليب التَّنَاول عبر العصور في الكنيسة القبطيَّة خصوصاً

أقدم إشارة وثائقيَّة عن العادة القديمة في التَّنَاول حين يأخذ المتناول الجسد المقدَّس على راحة يده اليمنى، ثمَّ يتناوله لفمه، في كنيسة الإسكندريَّة، نجدها في زمن البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٥م) ال ١٤ من باباوات الكنيسة القبطيَّة، وذلك في رسالته الخامسة التي كتبها إلى سيكستس الثَّاني Sixtus II أسقف روما (٢٥٧-٢٥٨م) حيث شرح فيها البابا ديونيسيوس حادثة وقعت لأحد الإخوة في كنيسة مصر، عندما حضر مراسم المعموديَّة، وسمع الأسئلة والأجوبة، فتيقن في قلبه أن المعموديَّة التي اقتبلها لم تكن كما رآها وسمعاها، إذ كانت مملوءة كُفراً وتجديفاً. فيقول البابا ديونيسيوس:

[كان أحد الإخوة ... يُعتبر مؤمناً منذ زمن طويل ... وكان حاضراً مع من تعمَّدوا أخيراً. وعندما سمع

٤- أرشيمندريت حنانيا إلياس كساب، مجموعة الشَّرْع الكنسي، منشورات النور، بيروت، ١٩٧٩م ص ٢١٥، ٢١٦

5- N.B. Gogol, *Meditations On The Devine Liturgy*, London, 1913, p. 85-86.

٦- أرشيمندريت حنانيا كساب، مرجع سابق، ٨٠. انظر أيضاً: المطران جراسيموس مسرَّة، الأنوار في الأسرار، بدون تاريخ، ص ١٦٩، ١٧٠

7- *Apol.* 1. 65.

٨- الأب هنري دالميس الدومنيكي، الطقوس الشَّرقيَّة، المعهد الكاثوليكي بالمعادي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١١٩

الأسئلة والأجوبة، أثنى باكياً ونادياً سوء حظّه، وسقط عند قدميَّ، واعترف محتجاً بأن المعمودية التي عمّد بها مع المهرطقة لم تكن كهذه المعمودية بأيّ حال من الأحوال، إذ كانت مملوءة كُفراً وتديفناً... لهذا طلب أن ينال هذا التّطهر الكامل، وهذه النّعمة الجزيلة. ولكنني لم أحسّر على أن أفعل هذا. وقلت: 'إن شركته الطويلة كافية (أي تناوله من الأسرار المقدّسة مدّة طويلة)'. لأنني يجب ألا أحسّر على أن أجدّد من البداية شخصاً سمع الشُّكر (الشُّكر، أي الإفخارستيا)، واشترك في ترديد آمين، ووقف أمام المائدة، ومدّ يديه ليتناول الطّعام المبارك، وتناوله فعلاً، واشترك وقتاً طويلاً في جسد ودم ربنا يسوع المسيح... لكنّه لا يكفّ عن النّحيب... إلخ<sup>(٩)</sup>.

والجدير بالذكر هنا أن استخدام المستير (الملعقة) لتناول الأسرار المقدّسة، سواء للجسد المقدّس أو للدّم الكريم، فلم يكن معروفاً في كنيسة الإسكندرية حتى إلى ما بعد زمن البابا أناستاسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م) على أقل تقدير، بل لم ينتشر استخدام المستير في الكنائس حتى أواخر القرن السّابع الميلادي كما سبق أن ذكرت. وبعد أن عُرف استخدام المستير في التناول، فقد كان الأصل في استخدامه هو لتناول الجسد المقدّس بعد أن صار تناوله باليد ممنوعاً كما كان الأمر في القرون الأولى للمسيحية، ولكن ليس لتناول الدّم الكريم به.

ومن أجل ذلك، فحين يتكلّم النصّ الليتورجي لصلاة تكريس المستير والذي يقول: "... أيها الرّب الصّابغ الكل، ابسط يدك على هذا المستير الذي نتناول به الجسد المقدّس والدّم الكريم"<sup>(١٠)</sup>، نعرف أنه نصّ ليتورجي متأخّر نوعاً، ذلك لأنّ تناول الدّم الكريم بالمستير لم يكن معروفاً في كنائس صعيد مصر حتى القرن الثالث عشر الميلادي.

أي أنه في كنائس صعيد مصر، وحتى القرن الثالث عشر الميلادي استُخدم المستير في تناول الجسد المقدّس فقط، وليس في تناول الدّم الكريم. وهو ما يشرحه لنا يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، حيث يشرح طريقة تناول الجسد المقدّس بالملعقة. فيوضّح أنه إن كان الكاهن المقدّس يخدم القدّاس، وكان البطريك حاضراً القدّاس - أو الأسقف في كرسيه - ولم يكن يخدم، فإنه يطلع الهيكل بعد غسل يديه، ثم يتقدّم يتناول القربان بالملعقة (أي أنه يأخذ جزءاً من الجسد المقدّس بيده من الصّينية، ويضعه في الملعقة، ثم يتناوله لفمه). أمّا الكأس فيشرب منها مباشرة، ويضعها مكافئاً. وأمّا الإيغومانس أي القمّص فيمسك الملعقة بيده، حيث يضع له فيها الكاهن المقدّس جزءاً من الجسد المقدّس، فيتناوله القمّص لنفسه. وأمّا القس فيتناول القربان من يد الكاهن المقدّس من غير أن يمسك بيده شيئاً 'من القربان'<sup>(١١)</sup> إن كان قد اشترك في الخدمة<sup>(١٢)</sup>. وأمّا بقية السّدراجات الأخرى فيضع لهم الكاهن المقدّس بيده جزءاً من القربان المقدّس في أفواههم، وهكذا أيضاً لبقية الشعب<sup>(١٣)</sup>.

ولا ذكر لاستخدام المستير في تناول الدّم الكريم عند ابن سباع (القرن الثالث عشر الميلادي)، سواء للإكليروس أو للشعب. لأنه في حديثه عن مناولة الدّم الكريم للشعب، يقول ما نصّه: "... وكذلك الكأس، ينبغي أن يكون مع حامله شماس آخر، ومعه خِرْق (أي لفائف) للمسح، بمسح فيها كلُّ من يتقرّب، فمه. ولا يتعرّض لخرقة الكأس جملة"<sup>(١٤)</sup>.

وهكذا يتأكّد لدينا أنّ الوقت الذي دخل فيه استخدام المستير للتناول من الدّم الكريم في الطّقس القبطي، كان في غضون

٩- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة القمّص مرقس داود، الطّبعة الثّانية القاهرة، ١٩٧٩م، (٩:٧)، ص ٣٥٢

10- Aziz S. Atiya, *The Coptic Encyclopedia*, 1991, vol. IV, p. 1065.

١١- لعلّ المقصود أنّ الكاهن المقدّس يتناول القس جزءاً من الجسد المقدّس بعد أن يضعه في الملعقة ويتناوله بالملعقة في فمه، بدون أن يمسك القس بالملعقة في يده. ذلك لأنّه من بين واحد وعشرين مخطوطاً لكتاب الجوهرة النّفيسة في علوم الكنيسة، قام الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسي بتحقيق نصّ الكتاب منها، هناك مخطوطان فقط حذفوا كلمتي "من القربان"؛ المخطوط الأوّل برقم (طقس ١٥ / سميكه ١٨٠) بالمتحف القبطي بالقاهرة، ويعود إلى سنة ١٦٣٤م، والمخطوط الثّاني برقم (لاهوت ١٥٩ / سميكه ٤١٩) ويعود إلى سنة ١٧٩٠م. وأظنّ أنّها القراءة الصّحيحة للنصّ في هذين المخطوطين المذكورين.

١٢- اشتراك القس في الخدمة - بحسب ابن سباع - يعني أنه قد حضر التّحليل الأوّل، الذي هو تحليل الحُدّام. أمّا القس الذي لم يحضر التّحليل الأوّل ويريد أن يتناول، فيتناول خارج الهيكل تأديباً له وتوبيخاً.

١٣- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، كتاب الجوهرة النّفيسة في علوم الكنيسة، حقّقه ونقله إلى اللاتينية، الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسي، مؤلّفات المركز الفرنسيّ للدراسات الشّرقية المسيحية، القاهرة، ١٩٦٦م، الباب ٨٣، ص ٢٧٧-٢٨٠

١٤- نفس المرجع، ص ٢٨٠

القرن الرابع عشر الميلادي، أو بعده مباشرة، ذلك لأن المصادر العربية لشرح القُدَّاس<sup>(١٥)</sup>، لا ذكر فيها لاستخدام المستير في تناول الدَّم الكريم سواء عند ابن سباع (القرن الثالث عشر الميلادي) أو عند ابن كَبَر (+١٣٢٤م)<sup>(١٦)</sup>.

فاستخدام المستير عند ابن سباع وابن كَبَر، كان لغرضين، الغرض الأول هو مناولة الجسد المقدَّس به للإكليروس، طبقاً لما سبق ذكره من شرح ابن سباع، والغرض الثاني هو لنقل الدَّم الكريم من كأس الإفخارستيا إلى كؤوس أُحرى في حالة وجود كثرة من المتناولين. فيتحدث ابن كَبَر (+١٣٢٤م) عن ذلك الأمر في كنيسة العذراء المعلقة مقر البطيريكية آنخذ، ويتضح من حديثه، كثرة أعداد المتناولين في هذه الكنيسة، فيقول ما نصّه:

”إن كان علي الهيكل كأسٌ آخر أو اثنان أو أكثر، فإذا تقرب (الكاهن) وقرب الكهنة الذين خدموا معه، يكرّر (يكرّس) الكأس الثاني، وهو بأن يتناول المستير ويأخذ به من كأس القُدَّاس، ويصّب في الكأس الذي لم يُقدَّس ثلاث ملاعق، ويقول فيها εϣλoσιθoοc (مباركٌ... )، ويكرّر ذلك ثلاث دفعات من هذا إلى هذا. ويضع الإسباديقون في عدّة الكاسات الزائدة عن الكأس الأول، فينقله منها ويوزّعه على بقية الكاسات. ثم يُقرب الشمّاس الذي خدم معه، وبقية الشمّامسة“<sup>(١٧)</sup>.

ويشرح ابن كَبَر (+١٣٢٤م) طريقة تناول القسوس من الدَّم الكريم أنه يكون من الكأس مباشرة، فيقول:

”الكاهن المقدَّس يتقرب أولاً ثم الذين خدموا معه من القسوس. وهو (أي الكاهن المقدَّس) يقربهم بالجسد، وهم يتناولون الكأس (من كرسي الكأس) وناولونه (له)، ثم يناوله بعضهم بعضاً. ثم الذين في الكنيسة من القسوس ولم يخدموا، يقربهم القس المقدَّس (من الجسد)، وناولهم الكأس بيد (واحد) منهم، إلا من رفع البخور وشارك في الخدمة“<sup>(١٨)</sup>.

أي أن التناول من الدَّم الكريم كان من الكأس مباشرة، ومع مرور الوقت احتفظ الإكليروس وحدهم بهذه الممارسة، بينما أصبح تناول الشعب من الدَّم الكريم بواسطة المستير، وهكذا في وقت متأخر، استُخدم المستير ليتناول به المؤمنون الدَّم الكريم من كأس الإفخارستيا، وهي الممارسة التي انتشرت في كنائس الشرق عدا الأرمن والموارنة. وهو ما صار سائداً في الكنيسة القبطية في غضون القرن الخامس عشر الميلادي، كما يخبرنا بذلك البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) في كتابه:

”الترتيب الطقسي“، والذي نعرف منه أسلوب التناول من الأسرار المقدَّسة في هذا الوقت، وملخص ما ذكره هو:

- بعد انتهاء القُدَّاس، يُقبّل الكاهن الخديم الجسد الطاهر ويتناول منه لفمه. ثم يتناول الدَّم الكريم من الكأس مباشرة، ثم يمسح فمه باللفافة، ويمسح أيضاً شفة الكأس مكان تناوله.

- يناول الكاهن الخديم الجسد المقدَّس للشمّاس في فمه. ثم يتناول الشمّاس الخديم الدَّم الكريم من الكأس مباشرة.

- الكاهن الخديم يعطي للشمّاس الخديم الكأس، ومعه الملعقة (المستير)، فيدور الشمّاس الخديم حول المذبح من جهته القبليّة ويقف في الجهة البحرية من المذبح.

- يناول الكاهن الخديم الشمّامسة الصّغار بأن يصبغ الجسد المقدَّس في الدَّم الكريم وناولهم في فمهم. وشمّاس واقف بلفافة يمسح لهم فمهم بعد التناول. أمّا الشمّامسة الكبار فيناولهم الكاهن الخديم الجسد (في فمهم)، والشمّاس الخديم يناولهم الدَّم بالملعقة (المستير)<sup>(١٩)</sup>، وشمّاس واقف بجوار الكأس حاملاً شمعة، يمسح لهم أفواههم بلفافة<sup>(٢٠)</sup>.

- عند مناولة الشعب، ينزل الشمّاس الخديم أولاً بكأس دم المسيح من الهيكل وأمامه شمّاس حامل شمعة. ثم ينزل الكاهن الخديم من الهيكل، وبعد أن يبارك الشعب بالجسد المقدَّس الموجود في الصّينية بمثال الصّليب، يناول الجسد المقدَّس

١٥- كما عند ابن سباع (القرن الثالث عشر الميلادي)، وعند ابن كَبَر (+١٣٢٤م)، وعند البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م).

١٦- الجدير بالذكر هنا، أن شرح طقوس وممارسات القُدَّاس الإلهي في الكنيسة القبطية يأتي من المصادر العربية وليس من المصادر اليونانية أو القبطية للقُدَّاسات القبطية.

Parry, Kenneth, *The Blackwell Dictionary of Eastern Christianity*, UK-USA., 1999, p. 137.

١٧- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهلية بباريس، وهو كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لابن كَبَر، الباب ١٧

١٨- انظر: القس شمس الرئاسة أبو البركات المعروف بابن كَبَر، مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، مكتبة الكاروز، القاهرة ١٩٧١م، ص ٤٣١

١٩- هذه أوّل مرّة يرد فيها تناول الدَّم الكريم بالمستير.

٢٠- أمّا حولاجي سنة ١٩٠٢م، الذي نقل معظم تعليمات كتاب الترتيب الطقسي للبابا غبريال الخامس إن لم يكن كلها، فيذكر (ص ٤١٦): ”... ولا يمسح (المتناول) فمه بلفافة أو غيرها“.

للرجال في فهمهم وهم مكشوف في الرؤوس، ويناولهم الشماس الخدم الدم الكريم بالمستير. وبعد الرجال يتناول النساء، وعلى رؤوسهن غطاء للرأس<sup>(٢١)</sup>.

- عند مناولة الأطفال الصغار، يصيغ الكاهن الخدم سبابة إصبعه في الدم الكريم ويضعها على الجسد، ويضع ذلك في سقف حلق الطفل، ويأمرهم بأن يسقوه ماء.

- بعد عودة الكاهن الخدم إلى المذبح، إن كان معه كاهن شريك، وكان قساً، يضع له الكاهن الخدم جزءاً من الجسد المقدس في يده أو يضعه له في الملعقة (المستير)، فيتناوله بنفسه<sup>(٢٢)</sup>. ثم يتناول الكاهن الشريك من الكأس مباشرة. وإن كان قد فضل شيء من الجسد المقدس، يوزعه الكاهن الخدم على الخدام الكبار.

وإن عادة وضع الجسد المقدس في يد المتناول قد بطلت في الكنيسة القبطية قبل غيرها من الكنائس الأخرى. وفي محاولة لتعليل سبب توقف هذه العادة في الكنيسة القبطية، يورد "كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت" لأحد معلّمي البيعة في القرون الوسطى، النص التالي: "إنّ عدم إعطاء الكاهن الجسد للشعب في أيديهم مثل بعض الأمم المؤمنين<sup>(٢٣)</sup>، فهو لأجل قوله لمريم: 'لا تقربيني، فإني بعد لم أصعد إلى أبي. امضي إلى إخوتي وقولي لهم: إني صاعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم'، فهو يدلّ أنهم أخذوا جسده وصاروا واحداً معه"<sup>(٢٤)</sup>. وهو نفس ما يذكره البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) في كتابه "الترتيب الطقسي" بنفس النص السابق ذكره مباشرة<sup>(٢٥)</sup>.

أمّا لفافة التناول التي يحملها المتناول القبطي على يديه أثناء التناول، فأوّل ذكر لها جاءنا من القرن الثاني عشر الميلادي، لإحدى الجهات في مصر حيث نقرأ: "... على جرى عادة الكثيرين، فإن تناول الجسد يُعطى بعد أن يرشم المتناول علامة الصليب، ثم يضع يده اليسرى على صدره ويده اليمنى فوقها، وهو يحمل فيها اللفافة، حتى لا تسقط جوهرة من الجسد إلى الأرض بسبب الإهمال"<sup>(٢٦)</sup>. ومن المعروف أنّ عادة وضع اللفافة على الفم عند التناول، هي عادة قبطية خالصة. إلا أنه لم يرد ذكر لفافة التناول هذه، لا عند ابن سباع، ولا عند ابن كبر (١٣٢٤م)، ولكن ورد عندهما ذكر اللفائف التي تُستخدم لفرش المذبح وتغطية الصنيّة والكأس ولف الحمل، حيث يُستخدم تعبير "الخرق" والمقصود بها "اللفائف"<sup>(٢٧)</sup>.

والطقس القبطي منذ البداية - والسائد حتى اليوم - كما في الطقس الكلداني القديم، يُعطى التناول للمتناولين بفصل عنصرى الذبيحة، وتناول كل منهما على حدة، الجسد أولاً، ثم الدم الكريم ثانياً. وهو ما تشرحه لنا أوّل قوانين مصرية محلية، وهي قوانين هيبوليتس القبطية في بداية القرن السادس الميلادي. فيقول القانون رقم (٢٥:١٩، ٢٦): "... يدفع لهم الأسقف من جسد المسيح، ويقول: هذا هو جسد المسيح. فيقولون هم: آمين. والذي يدفع لهم من الكأس يقول: هذا هو دم المسيح. فيقولون: آمين". وهو نفس ما يشرحه الكتاب الأوّل من قوانين الرسل القبطية (١٧:٥٢:١-١٩). وهو التقليد السّحيق في القدم الذي يعود إلى أوائل القرن الثالث الميلادي، كما يخبرنا كتاب التقليد الرّسولي (٥:٢٣-١١).

ولقد تطوّر هذا النصّ الليتورجي قليلاً، حيث يقول الكاهن عند مناولة الجسد: "جسد عمانوئيل إلهنا، هذا هو بالحقيقة آمين". فيقول المتناول: "آمين". وكذلك عند تناول الدم، يقول الكاهن: "دم عمانوئيل إلهنا، هذا هو

٢١- في الشّرق المسيحي، لا يُسمح للنساء بالتناول إلا إذا كنّ يرتدين "إبشارب" أو يضعن لفافة على رؤوسهن. وهي عادة شرقية منصوص على مراعاتها في القوانين الرّسولية. وما زالت باقية بوضوح حتى اليوم لدى الأقباط. ويشترك مع الأقباط في ذلك، الطقس السّلي في كنيسة إيرلندا، ممّا يؤكد تأثير هذا الطقس بالطقس القبطي.

F.E. Warren, B.D., *The Liturgy and Ritual of the Celtic Church*, Oxford, 1881, p. 136-138.

٢٢- لاحظ هنا التطوّر الليتورجي الذي حدث، لأنّ هذه الممارسة كان مسموحاً بها في القرن الثالث عشر الميلادي للقمص وليس للقس.

٢٣- كما في كنيسة أورشليم، والكنيسة السريانية الأنطاكية، والكنيسة اليونانية.

٢٤- كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، طنطا، ١٩٤٢م، ص ٣٠.

٢٥- الأنبا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مطبوعات المركز الفرنسيكاني للدراسات المسيحية الشّرقية، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٨٩.

٢٦- معاني رشم الصليب في الحياة الروحية وطقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، سلسلة نيايح الأرثوذكسية (٢)، بدون اسم مؤلف، وبدون تاريخ، ص ١٠٠.

٢٧- يوحنا بن أبي زكريّا بن سباع، مرجع سابق، الباب ٦٣، ٨٤؛ مخطوط رقم (عربي ٢٠٣) بالكنيسة الأهلية بباريس، وهو كتاب "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة"، لابن كبر، الباب ١٧.

بالحقيقة آمين“. فيقول المتناول: ”آمين“ (٢٨).

ولقد دوّن ألفريد بتلر A. Butler في كتابه ”الكنائس القبطية القديمة في مصر“ شهادة شاهد برؤيا العين، للطّقس القبطي، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، فيقول: ”ويتناول المتقدمون للتناول من القربان المقدّس وهم وقوف لا راكعين. والحقيقة أنّ الرُّكوع مخالف للطّقس القبطي...“ (٢٩).

أمّا في حالة نقل الأسرار المقدّسة من الكنيسة لمناولة واحد من المرضى: فقد حدّد القانون رقم (٣٦) للبابا أناسيوس الثاني (٤٨٩-٤٩٦م) بطريك الإسكندرية، شروط ذلك بقوله: ”لا يحمل أحدٌ من الكهنة السّرائر ويطوف بها الأزقة، إلّا لأجل واحدٍ مريض، أو أدركته الوفاة وشدّة ساعة الموت. وإذا حملوا السّرائر لا يُقرّبوا أحداً إلّا المريض وحدّه، ولا يعملوا بالوجوه ويعطوا لواحد غير مريض. وإذا اضطرّهم واحد أن يعطوه من السّرائر، فيكون ذلك له مثل الذي أخفى فضّة سيّده في الأرض، من أجل أنه لم يُكرّم الكنيسة فيأتي إليها. فلا ينبغي أن يكسل“.

وأخيراً أوّد الإشارة إلى أنه منذ القرون الأولى، كان هذا السّر يُعطى في حالات نادرة تحت شكل واحد، فيسرد البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٦-٢٦٤م) قصّة عجيبة تستحقّ الذكر عن واحد اسمه سراييون، في رسالة أرسلها إلى بطريك أنطاكية، يقول له فيها:

[كان معنا شخصٌ اسمه سراييون، وهو مؤمن متقدّم في السنّ، عاش زمناً طويلاً بلا لوم، ولكنّه سقط في التجربة. ولقد توسّل كثيراً، ولكن لم يلتفت إليه أحدٌ، لأنه ذبح للأوثان. فاعتراه مرض، وفقد التّطق والوعي ثلاثة أيام متوالية. وإذا تحسّنت صحّته قليلاً في اليوم الرابع، أرسل إلى ابن ابنته قائلاً: إلى متى تعوّقوني يا ابني؟ أتوسّل إليك أن تُعجّل وتخلّوني بسرعة. أدع لي أحد القسوس. ولما قال هذا فقد التّطق ثانية. فركض الصّبي إلى القس، وكان الوقت ليلاً، والقس مريضاً، فلم يقدر أن يأتي.

ولأنني كنت قد أمرتُ بأنّ الأشخاص الذين على حافة الموت يجب أن تُعطى لهم المغفرة إذا طلبوها، سيّما إن كانوا قد طلبوها من قبل، لكي ينطلقوا برجاء حسن. لذلك أعطى (القس) الصّبي جزءاً صغيراً من سرّ الإفخارستيا، وقال له أن يغمسه (في الماء) ويدع التّقط تسقط في فم الرّجل الشّيخ.

فعاد به الصّبي، وإذا اقترب، وكان لم يدخل بعد، تحرك سراييون ثانية وقال: لقد أتيت يا ابني ولم يقدر القس أن يأتي، ولكن افعّل بسرعة ما أمرك به، ودعني أنطلق. عندئذ غمسه الصّبي، وجعل التّقط تسقط في فمه. وإذا بلغ قليلاً، أسلم الرّوح في الحال.

أليس واضحاً أنه قد بقي حيّاً حتى نال الحل. وإذا مُسحت خطيئته، أمكن الاعتراف به بسبب الأعمال الصّالحة الكثيرة التي فعلها؟

هذا ما رواه ديونيسيوس [٣٠].

الأحد ٢٤ يناير سنة ٢٠٢١م

٢٨- كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٤١٦

٢٩- الدكتور ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، ترجمة الأستاذ إبراهيم سلامة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ٢١٧

٣٠- يوسابيوس القيصري، مرجع سابق، (٦:٤٤٤-٦).